

الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

عصارة المتاعب — الاتناج والاستهلاك في الحياة الأدبية — عتاب ١

عصارة المتاعب

من عصارة المتاعب يصاغ إكليل المجد، ومن عصارة المتاعب يُرفع ناسٌ من التراب إلى السحاب كذلك قلتُ وأنا أدفع وهماً رسوخ الحقائق، بحيث صار الأمل في زعرعته من أخيب الآمال، وهو الوم الذي يزعم أن الحياة السعيدة هي الحياة الخالية من التكاليف، وهذا الوم يحيط بنا من كل جانب، ويملاً حياتنا بالمتنصّات، لأنه يفرض علينا أن نفهم أن الراحة هي الغرض المنشود، وأن كلمة التعب تماثل كلمة الشقاء في الدلول

ما هو الفرق بين الرئيس والمردوس في وهم بعض الناس؟ الفرق هو أن الرئيس يملك من الراحة ما لا يملك المردوس، فهو لا يُسأل عن رعاية المواعيد، ولا بطالِب بالسّعة في إنجاز ما لديه من الأعمال (١٩)

وفي الأمثال المصرية كلمات تؤيد هذا المعنى، فالرجل السعيد هو الذي لا يستطيع أحدٌ أن يقول له: «قم من الشمس واقعد في الظل»، وهو الذي لا يُسأل عن «ثلث الثلاثة»، كأن المسؤولية تكليف يكدّر صفو الهناء

ولنفرض أن الراحة هي الناية، وأن كل رئيس يتمتع بها إلى أقصى حدود التمتع، فما السبب في أن تكون هذه المزية من حق بعض الناس لا كل الناس؟ وما هو السبب في أن يقضى فلان عمره وهو مردوس وقد أصبح نظرائه من الرؤساء؟ الجواب حاضر: فكل تقدم يُسبق بتركية من عصارة المتاعب، ومن لم يقدمه جهاده فإن يتقدم، ولو كان أبوه أقدر الرجال على إحياء الأرض الموات!

هل كانت الراحة من أنصبة الملوك، مع أنهم ملوك؟ وهل ظفر عظيم بالراحة في أي يوم؟

إن الراحة متممة حقيرة لا يرغب فيها غير الحقراء لقد امتلأت كتب الأدب بأخبار الملامى التي كانت تقام في قصور الملوك، فهل فكر أحدٌ في أسباب تلك الملامى وهل قال قائلٌ إنها ضجيجٌ يراد به ستر المتاعب؟

التعب هو المقياس للقيمة الذاتية، والعمل المتعب هو الذي يرشح صاحبه للجلائل الأعمال، والذي لا يرحب بالتعب ولا يفرح به لن يصل إلى شيء... والطمع في الراحة هو طمع الأموات لا الأحياء... وهل يشق بك أحدٌ وهو يعرف أن الراحة من التعب هي غايته، وأن التحرر من التكاليف هو مبتغاك؟

عصارة المتاعب

إحفظ هذه اللفظة جيداً، واكتب منها لوحات يزدان بها مكتبك، وانظر إليها في صباحك وفي مساءك، واعلم علم اليقين أنها مسطورة فوق كل قلب من قلوب المجاهدين الفاترين

عصارة المتاعب نقلت خلايق من التراب إلى السحاب، فلا يخاطر في وهمك أن إنساناً ارتفع بلا متاعب، ولا تصدّق أن الناصب العالية تمتنع كما تمنح الصدقات للموزين، ولا تصور أن نظام الوجود يسمح بأن يرتفع طائر بلا جناح أو يرتقى رجل بلا جهاد

يقول الكسالى من حولك بأن لا نهوض بلا وسيط، وهم يردّون كل فوز إلى قوة الوساطات والشفاعات

ولنسّم بأن هذا القول صحيح في المطالب الهيئنة، كأن يكون غرضك أن تكون موظفاً يأكل العيش بأحد الدواوين، فن الذي يرشحك لأن تقوم بعمل عظيم ولست له بأهل؟ من الذي يوصى بأن تكون قوة مهيمنة على زمانك وهو يدرك أنك تعجز عن السيطرة العسكرية أو الروحية في أي ميدان؟ وكيف تصل إلى توصية من رجل عظيم وأنت مجرد من الكفاية الذاتية؟

أقم الدليل أولاً على صلاحيتك للأعمال التي لا يقوم بها غير خول الرجال، ثم انتظر نصيبك الحق، فقد تصل إليه بلا وسطاء ولا شفعاء

هل جال بخاطرِكَ أن توازن بين رجلين أحدهما في مركز

لا في أوهامك ، فاشق الناس إلا بالتعب في الأوهام لا الأعمال
إفرح بالتعب ، قبل أن لا تفرح بالتعب ، فما يعانى التعب
غير الأقوياء

وتذوق عرق الجبين من التعب قبل أن تمنيه من المرض
واحذر ثم احذر أن تمر عليك ساعة وأنت مستريح من
هموم الرجال

هل سمعت باسم « الفرّازة » في عُرف أصحاب البساتين ؟
هى عود من الخشب تُسند به الشجرة الهيفاء ، ومن
المُحيف في الأشجار ، جاء الهيف في النساء

ومزية الفرّازة أنها تقني الشجرة عن الجهد في مقاومة الريح
إلى أن تستطيع المقاومة بعد حين ؛ وقد لا تستطيع بفضل
هذا التدليل

والفرّازة للشجرة كالشّاية للطفل ، وفي الناس من يعيش
طفلاً طول عمره ، لأنه لا يعيش بنير سناد

كن أنت أنت ، وقِفْ على قدميك ، واستفت ضميرك
في مصيرك ، ولا تجعل لغيرك فضلاً في قلبك من حال إلى أحوال
لا تخف من التوحد . فأتوحد غير الآساد ، واذكر دائماً
أن الله جعل أمرك بيدك ، وأنه فتح لك خزائن الأرض والسماء
من هؤلاء : تشرشل وروزفلت وستالين ؟

هم ناس أمثالك ، ولكنهم اعتمدوا على عزائمهم فجعلهم الله
من العظماء

وهل كانت البداية الأولى لهتلر وموسوليني تبشر بأن
ستكون لهم فاعلية دولية في السلم أو في الحرب ؟
وهل كانت البداية الأولى للمسيو بوناپارت توحى بأن سيكون
الإمبراطور نابليون ؟

عصارة المتاعب هى التى صنعت الأعاجيب فحوّلت الأطفال
إلى رجال ، وعصارة المتاعب هى التى تقلت هؤلاء من التراب
إلى السحاب

إتعب قبل أن لا تعب ، فالتعب أمضى من السيف في اختراق
المصاعب والأهوال
الراحة سم زعاف ، وهى شؤم على الأعضاء والشرابين
والأعصاب

فوق ما يستحق ، وثانيهما في مركز دون ما يستحق ؟ فأى
الجلين أعظم في نفسك ؟ وأى حظ من هذين الحظين تريد
لنفسك ؟

وهل فكرت يوماً في غضب الله على من يأخذ أجراً بحق ؟
أنا أخشى أن يكون رزقك أكبر من جهادك ، فيكون
في طعامك شيء من الحرام ، والطعام لا يُسمن إلا إن كان
حلالاً في حلال

ثم ؟ ثم ماذا ؟

هل فكرت في منافع الأعضاء ؟ (١)

كل عضو يمرض للغضب إن لم يؤد أعماله الأساسية ،
فالعين تَضُمُّفُ إن صُرِفَت عن النظر ، والرجل تَثْقُلُ إن
كُفِّت عن المشي ، فما رأيك في عزيمتك وهى جارحة معنوية ؟
أنا أعرف أنك تستعني أن يحمل عنك الناس جميع أعبائك ،
وأن تركب فرساً ركة الإغراز لا ركة الفروسية ، وما أبعد
الفرق بين الرّكبتين !

الراكب الأول مخلوق مدلل مُراضٍ له الفرس ، والراكب
الثاني فارس يروض الفرس ، فانظر أين أنت بين هذا وذاك ؟
كن رجلاً فعلاً يصنع المعجائب في تصريف دنياه ، كن
رجلاً يفرح بالتعب ، فالتعب أعظم رزق من أرزاق الرجال

لم يتقدم فرد على فرد ولا شعب على شعب إلا بفضل عصارة
المتاعب ، ولا جاز أن يتقدم متخلف أو يتخلف متقدم إلا بسبب
تقاوت الجهاد

والأقدار التى سمحت بأن يكون فلان وزيراً في المملكة
الفلانية — وكان في صباه بائع جرائد — هذه الأقدار لم تحارب
بأى لون من ألوان المحاباة ، وإنما احترمت عصارة المتاعب
في الأعوام السّداد فصيرته من الوزراء

ولتصرف جيداً أن لا نهاية لفضل الله على المجاهدين ، فمنده
طبيبات تفوق الوصف والإحصاء ، وهو لا يتخلى عنك إلا يوم
تتخلى عن نفسك بإيثار الراحة من عناء الجهاد

إفرح بالتعب ، واسأل الله أن يكثر متاعبك في أعمالك

(١) الفزالي يقول « منافع الأعضاء » فيما نسبه اليوم « وظائف
الأعضاء »

من سيطرته الروحية في الشرق، مع أنه لا يعتمد على أى سند،
ومع أن الأدب في مصر لم يصبح أداة من أدوات المجد،
في حدود ما يستحق من التبجيل
فإذا نصنع لنكون منتجين لا مستهلكين بالنسبة لأهل
الغرب؟

ما ذا نصنع؟

هل نترجم لهم ما يصدر عن أدباء مصر من الروائع؟
هل نستجديهم الثناء على ما عندنا من الآداب والفنون؟
لا هذا ولا ذاك، وإنما الرأي أن نعتز بالذاتية العربية،
وأن نحاول خلق جبهة أدبية من قراء العرب، وهم يزيدون
على الثمانين من الملايين

إن صنعنا - ونصنع - فسيلتفت الغرب إلى الشرق،
وسيكون لنا في حياة الفكر والرأى تاريخ جديد
ما هذه الفطرسه التي يتمتع بها بعض أدباء الغرب؟
وما هذه الهالة التي يحيطهم بها بعض المترجمين؟
أنا أنتظر مساجلة دولية يشترك فيها أدباء مصر مع أدباء
الفرنسيين والإنجليز والأمريكان والألمان
أنا أنتظر هذه المساجلة في أقرب وقت، ليعرف العالم القديم

والجديد مكانة مصر في فردوس الأثلام والبقول
مصر تجيد، وأدباؤها يجذون، وهي تؤمن بأن مكانها
في الفكر أعظم مكان، فإن كنتم في ريب من عظمتها الفكرية
فتعالوا إلى السباق في ميدان الرأى والبيان
عند أوروبا وأمريكا مدافع وطيارات وأساطيل، وتلك قوى
أنعم الله بها على الأوربيين والأمريكان، والله يخلص بالقوة
من يشاء

ولكن مصر السلمية لا الحرية تقول إن مكانها في الأدب
لا يدانيه مكان، وإنها مستعدة لأعظم سباق في ميادين الروح
والوجدان

في مصر اليوم عشرون أديبا من العطاء، على أقل تقدير،
فأين الأمة التي تقول إنها تملك من عطاء الأدب عشرين؟
مصر اليوم هي دولة الفكر والرأى، وهي صلة الوصل بين
الشرق والغرب، وإليها المرجع في الفصل بين الحقائق والأباطيل

لا تنبتم للراحة، فلا راحة إلا بالتحرر من المسئولية، وهذا
حظ المجانين

إن آذاك نصحى فأنا أوجهه إلى نفسى لا إليك، لأنى أخرج
منك إلى هذه الكلمات، بعد أن كدت أرتاب في المهاج الذى
اخترته لحياتى

الانشاج والاستهلاك في الحياة الفكرية

المنتج في عالم الاقتصاد هو الذى يصنع ويورد إلى عملائه هنا
وهناك. والمستهلك هو الذى يشتري ما تنتج المصانع من صنوف
البضائع. والصلة بين المنتج والمستهلك صلة طبيعية عرفها الناس
من قديم الزمان، وإن لم تخل من الشعور بأهمية الفرق بين
الإنتاج والاستهلاك في وزن أقدار المتعاملين

والمنتج هو أيضاً مستهلك، فصانع « المحلة » بالديار المصرية،
ومصانع « لنكشير » بالديار الإنجليزية، هذه المصانع تنتج
الأقمشة، وهي مع ذلك تستهلك الخيوط فتحتاج إلى الأقطان
التي تخرجها المزارع المصرية والأمريكية

ومن الواضح أن المنتج أقوى من المستهلك، لأنه المتحكم
الأول في الأسواق، ولأن المستهلك يمجز عن مقاومته
في أغلب الأحيان

فما الرأى في الإنتاج والاستهلاك في الحياة الفكرية؟
وما مراكزنا الصحيح بين المنتجين والمستهلكين؟

قصينا زمناً ونحن عملاء أمعاء للثقافات المجلوبة من بلاد غير
هذه البلاد، فتي نتج بأكثر مما نستهلك؟ ومتى نحاول غزو
الأسواق الأجنبية بالفكر والبيان؟

قد يقال إن الفكر المصرى منتج بالنسبة لكثير من أمم
الشرق العربى والإسلامى

وأقول إن هذا ميدان غير جديد، فالعرب والمسلمون إخوة
لنا بالشرق، وما بيننا وبينهم من الجاذبية الروحية قد يوجب
أن يرضوا منا بالقليل، وإن لم ندخر جهداً في أن نلقاهم بأقوى
بما يلقاهم به أقطاب الفكر من أهل الغرب

والحق أن الأديب المصرى غاية في الحرص على التسليح
بالجدية في الحياة الأدبية، وقد يكون جهاده في الأدب أقوى
من جهاده نظرانه في الأم الأوربية والأمريكية، بدليل ما نشاهد